المحاضرة السادسة

• اليعاربة وكفاحهم ضد الاستعمار البرتغالي

كان العمانيون إحدى القوى الرئيسية التي لعبت دورا كبيرا في الصراع الدولي في منطقة الخليج العربي خلال الحقبة التاريخية ابتدأ من القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر.
وكان لموقع عمان الحساس والهام اثر كبير في هذا الدور، فمن الناحية الجغرافية تطل عمان بسواحلها الطويلة على البحر العربي وخليجي عمان والخليج العربي، ولذلك كان اتصالهم مباشرا بالمحيط الهندي والسواحل الإفريقية والأسيوية .
وكان للعمانيين دور كبير في حركة التجارة والنقل بين الشرق والغرب. وقد انعكس هذا الدور على السياسة العمانية تجاه القوى الاستعمارية بشكل مختلف من قوى لأخرى كما ذكرنا من قبل.
وبسبب موقع عمان على مدخل الخليج العربي فكانوا هم أول من تلقى صدمة الاستعمار البرتغالي الشرسة في عهد القائد البرتغالي البوكر، الذي مارس أعمال السلب والتدمير والخراب في المنطقة كما سبق وذكرنا. ولم يستطع العمانيون في ذلك الوقت الدفاع عن بلادهم لأن سرعة الهدم كانت أكبر من سرعة تجميع القوى وتنظيم المقاومة فوقع عليهم هذا العدوان كالصاعقة.
وبعد أن سقطت معظم المدن العمانية الساحلية في أيدي البرتغاليين في بداية القرن السادس عشر، بدأ العمانيون في تنظيم جهودهم لإخراج البرتغاليين وقد بذلوا في ذلك جهودا كبيرة. وقد حاول العمانيون تحقيق هذا الهدف بمفردهم تارة وبمساعدة الأتراك تارة أخرى ولكن دون جدوى بسبب التفوق الكاسح للبرتغاليين في ذلك الوقت طوال القرن السادس عشر. ثم بدأ العمانيون في الاستفادة من الاحتكاك بالبرتغاليين في صناعة السفن واستخدام المدفعية وبدأت المقاومة تؤتى أثارها بالتدريج منذ أواخر القرن السادس عشر على أيدي الأئمة اليعاربة.
وكانت قبيلة اليعاربة كغيرها من القبائل العربية التي استقلت كل واحدة بمنطقتها بعد ضعف الإمامة بعمان وتغلب بني نبهان عليها. وقد اشتهر رؤساء وحكام اليعاربة بسمعتهم الدينية واهتمامهم بقضية بعث الإمامة وإعادتها إلى سابق عهدها على أساس المذهب الأباضى، وتولى ناصر بن مرشد بن مالك أبى العرب الحكم بداية من عام ١٦٢٤م ولذلك سمي حكمهم باليعاربة والذي دام حتى عام ١٧٤٣م.وكانت عودة الإمامة لليعاربة نقطة هامة في تاريخ عمان حيث أصبحت في زمنهم أقوى دولة في المحيط الهندي والخليج العربي ولها أملاك في سواحل الهند والجزيرة العربية وشرق أفريقيا وسواحل إيران.
نشر اليعاربة الأمن في سواحل المنطقة وكانت أساطيلهم مصدر الرعب للقراصنة. وقد أدى الاستقرار الذي نعمت به المنطقة إلى زيادة الإنتاج ووفرة المحاصيل وساهم في ذلك توقف الهجمات الاستعمارية وسيل المغامرين الأوربيين من هولندا والبرتغال وانجلترا مؤقتا بسبب الحروب التي كانت دائرة في أوروبا في ذلك الوقت. أما الجانب السلبي فقد تمثل في الأتراك والإيرانيين الذين كانوا يحاولون إضعاف أي قوة عربية وكان اليعاربة هم من وقع على عاتقهم الصمود أمام القوى الطامعة الخارجية وتعتبر دولة اليعاربة والعهود الأولى من دولة البوسعيد من أزهى عصور عمان.

• حروب اليعاربة ضد البرتغاليين

تصدى الإمام ناصر بن مرشد لاستعمار الأجنبي المتمثل في القوات البرتغالية التي كانت تحتل السواحل العمانية وقواعدهم في مسقط وصحار ورأس الخيمة تسيطر على مدخل الخليج العربي والإيرانيون فى عونهم. واستطاع الإمام أحمد توحيد الجبهة الداخلية وقضى على المعارضة وواجه البرتغاليين واستولى منهم على رأس الخيمة وكانت ضربة قاسمة ثم استسلم البرتغاليون أمامه في مسقط وصحار عام ١٦٤٩م على أن يدفعوا الجزية مقابل استمرارهم فى المنطقة. وبعد وفاته واصل ابن عمه الإمام سلطان بن سيف مقاومته للوجود البرتغالي حتى استطاع في ١٦٥٠م أن يرغم البرتغاليون على تسليم قلعتهم التي لا تقهر ثم الرحيل عن البلاد.
وقد ساهم انتصار العثمانيين على البرتغاليين في جلاء البرتغاليين عن باقي مراكزهم في الخليج العربي. ولم يكتفي الإمام سلطان بهذه الانتصارات التي تحققت له على البرتغاليين وإنما أخذ في مهاجمتهم فى سواحل الهند أيضا، وبعد وفاته واصل خلفاؤه بمواصلة القتال ضد البرتغاليين وكذلك الإيرانيين الذين اتفقوا مع البرتغاليين على الحرب ضد العرب. ونتيجة هذه الانتصارات فقد اتصل باليعاربة سكان شرق أفريقيا الذين كانوا يعانون من بطش الاستعمار البرتغالي، يطلبون منهم النجدة لتخليصهم من البرتغاليين، وبالفعل قام العمانيون بمساعدتهم ونجحوا في طرد البرتغاليين من شرق أفريقيا.

•البوسعيد

تنسب أسرة البوسعيد الى احمد بن سعيد مستشار الامام سيف بن سلطان، الذى كان يعانى من كثرة الدسائس والاضطرابات فى اخر أيامه فاعتمد على احمد بن سعيد فى ادارة البلاد وتميزت ادارته بالحزم والقوة واليقظة. وبسبب النزاعات الداخلية بين مدعى الامامة وبين الامام سيف بن سلطان تدخلت ايران من خلال المساعدة التى طلبها سيف بن سلطان منهم ضد خصومه فكانت فرصة لايران للتدخل فى عمان وأيضا السيطرة على بعض المدن العمانية الهامة مثل مسقط والمدن المحيطة بها. وقد ازداد هذا التدخل والنفوذ الايرانى بعد وفاة الامام سيف بن سلطان.

• البوسعيد و الفرس

في تلك الفترة الصعبة والحرجة تمكن احمد بن سعيد من الصمود أمام الهجوم الفارسي رغم نفاد إمداداته حتى انتهى الأمر بالصلح مقابل رحيل الفرس حتى مسقط. ثم استطاع احمد بن سعيد من محاصرة الفرس في مسقط واستطاع في النهاية طرد الفرس من مسقط وأصبح بعدها المخلص الوحيد للبلاد من شر الفرس الذين تم طردهم نهائيا في ١٧٤٤م مؤسسا بذلك أسرته الحاكمة التي عرفت بأسرة البوسعيد. وبعد أن استقر الوضع في عمان بدأ احمد بن سعيد فى تأسيس جيش دائم وتأسيس قواعد قضائية واقتصادية وإدارية كان لها دور كبير في ازدهار وقوة عمان آن ذاك.
وقد اتسمت العلاقات الفارسية بالدولة البوسعيدية بالتنافس من أجل الحصول على السيادة البحرية ، فمن المعروف إن فارس قد سعت ومن خلال فترات مختلفة من تاريخها نحو تحجيم القوة البحرية العمانية . لقد واجه الأسطول الفارسي في عهد نادر شاه مشاكل عديدة منها اعتماده بالدرجة الأولى على المساعدات الأجنبية في بنائه ، وكذلك افتقاره إلى وجود الخبرات المحلية المتمرسة في فنون الملاحة مما دفع بقيادة الفرس إلى الاستعانة بالبحارة العرب لقيادة هذا الأسطول.
وبعد وفاة نادر شاه خلفه في الحكم كريم خان زند الذي حاول السير على نهج سلفه نادر شاه التوسعي في منطقة الخليج العربي ، ومن هذا المنطلق بعث كريم خان برسالة الى الإمام أحمد طالبا منه دفع الجزية السنوية ،متعللا بما يدعيه بتبعية عمان إلى فارس ، ولكن الإمام أحمد بن سعيد رفض المطالب الفارسية باسلوب رجال السياسة المتمرسين الذين يعرفون كيفية مخاطبة التطلعات الاستعمارية، وذلك برفض المطالب الفارسية جملا وتفصيلا.
وبدء الإمام في التخطيط لاستخدام القوة التي قد يلجأ إليها عدوه وقام بالتحاف مع خصوم الفرس وخاصة الأتراك ،وبسبب ضعف منافسي الإمام وموت كريم خان ، استطاع الإمام أحمد بن سعيد استعادة مركز عمان القوي في منطقة الخليج العربي ، لذلك نفهم من السطور السابقة أن العلاقة ما بين الدولة البوسعيدية وفارس ، علاقة عدائية من قبل الفرس الذين كانوا يطمعون في خيرات عمان ، خصوصا وأن عمان أصبحت لها في ذلك الوقت قوة بحرية كبيرة.

ومع مطلع عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م قام الفرس بالهجوم على البصرة بحجة سوء المعاملة التي يلقاها الفرس والضرائب التي تفرض عليهم وهم في طريقهم إلى الأماكن المقدسة في النجف وكربلاء.
ولم تجد القبائل العربية في البصرة حرجاً من الاستنجاد بالإمام احمد بن سعيد الذي وضع إمكانات بلاده تلبية لنداء أخوانه في البصرة وأعد أسطولاً . وعلى الرغم من نيران المدفعية الفارسية التي صوبت نحو العمانيين إلا أنهم قد تمكنوا من دخول شط العرب في منتصف عام ١٧٧٥م .
لقد حقق الإسطول العماني الحماية الكاملة لمنطقة شط العرب وأمن المساعدات القادمة من عمان وفي أوائل عام ١٧٧٦م إنسحب الإسطول العماني عائداً إلى بلاده خوفاً من أن تكون فارس تعد العدة للهجوم على عمان .
لقد كان إنقاذ البصرة وأهلها من الهجوم الفارسي سبباً كافياً لتقدير العثمانيين الدور العماني لذا فقد تقرر أن تمنح عمان مكافأة سنوية من خزانة البصرة وقد إستمرت هذه المكافأة منذ عهد الإمام أحمد بن سعيد وحتى عهد السيد سعيد بن سلطان .

•علاقة البوسعيد مع القوى الأوروبية

وقد كان الصراع الدولي في تلك الفترة صراعا من أجل الحصول على مناطق النفوذ والامتيازات، وبذلك نجد الصراع الذي قام بين بريطانيا وفرنسا حول عمان ذات الموقع الاستراتيجي المميز، ومحاولة كلا منها ضمها إلى مناطق نفوذها، ولقد فطن الإمام احمد بن سعيد إلى التطلعات الاستعمارية الأوروبية ورسم سياسة خارجية لعمان ارتكزت على مبدأ الحياد وتميزت العلاقة الفرنسية البريطانية بالاستقرار، إلا أن هذا الاستقرار تعرض لبعض الهزات وخاصة عندما نشبت حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣م) بين البلدين، في هذه الفترة حدث نوع من الاضطراب في المياه العمانية .
والجدير بالذكر أن الإمام احمد بن سعيد كان أول من بدأ بالتعامل التجاري مع فرنسا في جزيرة مورشيوس التابعة للسلطة الفرنسية وبعض المستعمرات الفرنسية الأخرى حيث كانت السفن العمانية تذهب محملة بالسكر وتعود محملة بالسمك المملح والبن، ونتيجة للتطورات التجارية بين عمان والمستعمرات الفرنسية في المحيط الهندي في تلك الفترة، أبدى الإمام أحمد بن سعيد رغبته في أن ينشئ الفرنسيون وكالة تجارية في ميناء مسقط دون مقابل

وكانت طبيعة العلاقة بين فرنسا وعمان طبيعة تجارية، وقد أدرك الإمام احمد بن سعيد أهمية الصداقة الفرنسية، ورغم تعرض هذه العلاقات إلى التوتر في عهد سعيد بن ناصر بسبب بعض أعمال القرصنة من قبل السفن الفرنسية. وقد بلغت العلاقات الفرنسية العمانية ذروتها عندما اقترحت فرنسا تعيين وكيل دائم لها في مسقط، ولكن لم ينفذ هذا الاتفاق رغم ترحيب الجانب العماني بسبب الثورة الفرنسية التي قضت على النفوذ الفرنسي في الشرق الأدنى. ثم أصدرت فرنسا بعد مرور الثورة مرسوم بتأسيس قنصلية في مسقط ولكن وقفت انجلترا بالمرصاد لإفشال كل المساعي الفرنسية الهادفة للتقارب مع العمانيين

أما على الصعيد البريطاني، فعندما نزلت حملة نابليون بونابرت على مصر وكانت تستهدف الإنجليز في الهند، استغلت بريطانيا مشاعر المسلمين ضد الحملة الفرنسية على مصر لمنع فرنسا من التغلغل في عمان والخليج وبالفعل تمكن الانجليز من توقيع معاهدة بين سلطان بن احمد حاكم مسقط وبين شركة الهند الشرقية الانجليزية في ١٧٩٨م.

وقد تضمنت هذه المعاهدة نصوص من شأنها تقوية العلاقات بين عمان وبريطانيا للقضاء على النفوذ الفرنسي والهولندي. وأهمية هذه المعاهدة أنها أول معاهدة تعقدها انجلترا مع حكام عرب الخليج وتتسم بالطابع السياسي .

وتحت حجة منع تجارة الرقيق أبرمت بريطانيا مع البو سعيد معاهدة أخرى في ١٨٠٢م تعهد فيها بإيقاف تجارة الرقيق، ثم معاهدة تجارية في عام ١٨٣٩م.

وفيما يبدو أن الأوضاع الداخلية كانت وراء قبول العمانيين للموافقة على هذه المعاهدات رغبة في العون البريطاني المدعم لفريق على حساب الأخر أثناء الصراع الداخلي العماني. وقد ثار الشعب العماني في ١٨٠٨م ضد هذه المعاهدات مع بريطانيا وحقق قدر من النجاح بتقليص هذه العلاقات ولكنها لم تكن بالقوة التي تستطيع أن تقطع تلك العلاقات نهائيا

ورغم المعاهدات التى أبرمها العمانيون مع القوى الاستعمارية المختلفة الا أن أبرز هذه المعاهدات وأكثرها فاعلية هى المعاهدات مع فرنسا التى كانت تعكس سياسة عمان فى الحفاظ على علاقات طيبة مع فرنسا لاضعاف ومواجهة النفوذ البريطانى الذى كان واضحا قوته وتركيزه على منطقة الخليج . ولكن بعد هزائم فرنسا أمام انجلترا فقد انفردت بريطانيا فى الميدان دون منازع فكان السعى للتقرب العمانى مع انجلترا من أجل حاجة البوسعيد الى قوة كبيرة تسانده فى مشاكله الداخلية وتحقيق طموحاته فى السيطرة على الخليج العربى والبحرين.